التقدم والكمال عند كوندرسيه

د. وفاء عبد الحليم محمود
أستاذ فلسفة القيم الحديثة والمعاصرة المساعد
قسم الفلسفة – كلية الاداب
جامعة طنطا

" إن حياة الإنسان ليست فى صراع للمنافسة للحصول على الجوائز،

بل هي رحلة تجعل الأشقاء معا، حيث توظف كل قواهم من أجل خير الجميع،

ليتذوقوا حلاوة الإحسان المتبادل من المتعة التي تأتى مع وجود مشاعر

الإمتنان، أو الحصول على التقدير من الآخرين، فنحن فى حاجة إلى سلام

داخلى يحقق السعادة والفضيلة "

كوندرسيه "مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى"

التقدم(*) والكمال عند كوندرسية(**):

تقديم:

اذا كان القرن السابع عشر بمثابة نقطة انعطاف انبثقت منها مذاهب فلسفية متشعبة، من خلال المنهج الديكارتى، والدعوة البيكونية للتحرر من الأوهام، مما أدى إلى اندلاع صرخة التنوير الداعية إلى إعمال العقل وعدم التكاسل. فإن مشروع التنوير يعتبر أكبر مشروع تنويرى أنجزه فلاسفة القرن الثامن عشر بمعية صفوة من النخبة فى كل المجالات، متخذًا من المنهج العلمى وتصنيف المعرفة فى الموسوعة أداة تمكنه من تطبيق المنهج العلمى وبلوغ التقدم. ، لقد تمكنت فلسفة التحرر من الدخول إلى القرن الثامن عشر برسالتها الشامخة عن التقدم والتطور بغير حدود، وذهب المفكرون وأصحاب الخيال البعيد بدءا من كوندرسيه إلى الوعد بعالم خال من الحروب، متحرر من القوة والصراع والعنف، وتدريجيا تحول الحلم إلى منظمة دولية تستبعد الحروب، وتوطد حكم القانون فى العالم. (١)

اشكالية البحث:

يدور البحث حول فكرة التقدم باعتباره ضرورة معبرة عن قانون التاريخ نفسه، فالتقدم دليل على تعاقب الأجيال الإنسانية، وارتباطها ارتباطا وثيقا اللاحق بالسابق، لضمان التقدم الإنسانى وهذا المبدأ أكد عليه كوندرسيه فى مقدمة كتابه "مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى"". فهل نستطيع أن نتقدم نحو الأفضل وصولا إلى الكمال؟ وهل التقدم الأخلاقى ممكن أن نحققه بسهولة إذا أدرك الإنسان طبيعته وقدراته ؟ وما معيار التقدم؟ وما المعوقات التي تقف حائلا أمام التقدم والمقومات التي تساعد عليه ؟ وهل التقدم موروث فينا أم أنه مكتسب؟ والسؤال الذى يفرض نفسه علينا هل استطاع كوندرسيه أن يؤسس نظاما أخلاقيا؟ وما الأهمية القومية للتقدم ؟ وهل يأتي اليوم الذى تصل فيه كل أمة لحالة من التحضر على يد أولئك الأكثر تحررا، والأكثرت جردًا؟ ألا يقترب البشر من تلك الحالة التي يمتلكون فيها المعرفة الضرورية لضبط أنفسهم فى شئون حياتهم العامة بالعقل والفكر السديد بالحفاظ عليه نقيا من أى تعصب وتحيز، حيث يفهم الكل حقوقهم ويمارسونها بما تمليه عليه آراؤهم وضمائرهم ؟من ثم وقع اختيارنا على كوندرسيه لعدة أسباب :-

١- يصطف كوندرسيه مع فلاسفة القرن الثامن عشر العقلانيين الذين تمكنوا من وصف عهود ومشكلات العصر الجذرية والقائمة ذات البعدين السياسى والاجتماعى، الذين قدموا أفضل علاج لهذه المشكلات. ، باعتباره مشاركًا فعليًا فى حركة ذات أهمية تتمثل فى الثورة الفرنسية، وقد أدرك نفسه باعتباره مشرعا، ووضعه الاعتبارى

بوصفه فيلسوفا ورياضيا، فهو تركيبة فريدة جمعت بين توليفة نادرة للثورة الفرنسية والديمقراطية، والعقل، والمساواة بين النظر والتطبيق، فهو مشروع استثمار لاستعادة القيم المفقودة والفضائل المهملة. [٢]

٢- يمثل مرحلة هامة من مراحل التطور الاجتماعى فى فرنسا.

٣- يعتبر كوندرسيه أصيلا فى توسيع فكرة التقدم لتشمل كل نواحى النشاط الانسانى[٣]، كما نظر إلى التاريخ باعتباره قصة للتقدم العقلى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى والفنى، وهذه النواحى جميعها مرتبطة بالضرورة، وهذا ما أشار إليه هامبشير"فى مقدمة كتاب المخطط لكوندرسيه ".

٤- تميزه الرياضى أتاح له الفرصة للتمتع بمعرفة عميقة للعلوم، كما استخدم الرياضيات فى تحليله للظاهرة الاجتماعية وتطبيقها على المجتمع[٤] من منظور رياضى تجريبى.

٥- صاحب فكر تحررى يؤمن بأن الحرية حق لكل إنسان.

٦- نظرته الثاقبة للحضارة الإنسانية جعلته يتتبع الأسباب التي تؤثر فعلا فى مجموع الجنس البشرى، وهذه النظرة أعطت لكتاب "المخطط "قوة وأصالة. وخطط للثورة الفرنسية، وكان صديقا لكل مشاهير عصره وثائرًا مخلصًا متحمسًا للآراء التقدمية التي كانت شائعة فى هذه الفترة بين مثقفى فرنسا[٥].

٧- فقد داعب الخيال كوندرسيه للوصول إلى التقدم والكمال للجنس البشرى، فهل حلمه بالتقدم مثالى وواقعى فى الوقت نفسه؟ أم أن انطلاقه واقعى، وحلمه مثالى، والواقع محدود بالنسبة له ؟ وما آلياته للوصول إلى هدفه ؟

وتنقسم هذه الدراسة إلى محورين وأهم النتائج :-

المحور الأول :- التقدم والكمال عند كوندرسيه:-

١- سماته الفلسفية والمؤثرات في فكره.

٢- آراؤه المعرفية وعلاقتها بالروابط الاجتماعية وسعادة الإنسان.

٣- فرضيات وأليات التقدم ومراحله المختلفة عند كوندرسيه.

المحور الثانى :- المنطلق الفلسفى التنويرى للتقدم وأبعاده المختلفة -

١-الأبعاد الإجتماعية للتقدم :-

أ- اسلوب التعلم (اللغة والكتابة). ب- الأخلاق. ج الدين –العلوم

٢-الأبعاد السياسية والقانونية للتقدم.

٣- الأبعاد الاقتصادية للتقدم.

٤- الفلسفة والتقدم.

٥- معوقات التقدم عبر المراحل المختلفة.

نتائج البحث

قائمة المراجع.

المحور الأول :-

١- سماته الفلسفية والمؤثرات عى فكره :-

أحد رجال عصر التنوير المناصرين للحرية الاقتصادية والتسامح الدينى والإصلاح القانونى والتعليمى، أراد أن يمتد العقل إلى الشئون الاجتماعية، فترك بصماته على علم الإجتماع، وقد تأثر كوندرسيه بمشاهير عصره من خلال اتصاله بفولتير الذى كان له أكبر الأثر في تغير اتجاهه للبحث فى الميدان الاجتماعى، بدلا من البحث فى الرياضيات، كما تأثر بجون لوك، وجان جاك روسو وتورجو، ونجم عن ذلك كتاباته فى فلسفة التاريخ. وتعتبر آراء كوندرسيه خير معبر عن طبيعة التقدم، وقابلية الجنس البشرى للوصول إلى والكمال، فقد كان لها أكبر الأثر فى الفلسفة وعلم الاجتماع، فقد ترك بصمات واضحة فى فكر أوجست كونت، وتأثر بها وخاصة صياغة كوندرسيه لقانون تقدم الجنس البشرى، وفكرته عن تاريخ تطور الأفكار الاجتماعية [٦] ونستطيع الإشارة إلى آرائه فى عدة نقاط :-

١- مفكر مثالى ذو طبيعة مهذبة يحظى باهتمام وحب الجميع، كره الظلم والاستبداد، دافع عن الحرية الاقتصادية والتسامح الدينى، رفض التعصب ونادى بالمساواة فى جميع الأمور الاجتماعية، مناديا بضرورة الحوار بين الجنس البشرى. [٧]

٢- دعا للبعد عن الخرافات والاستجابة لتطوير المعارف العلمية، والتطور الحر للفرد، ورفض نظام الامتيازات الذى كان سائدا خلال القرن الثامن عشر إبان الثورة الفرنسية[٨].

٣- بالرغم من إنتمائه إلى دولة غربية مسيطرة على أفريقيا وآسيا إلا إنه، من خلال إيمانه بالحرية، ناشد الشرق بالتحرر من الاستعمار، وقد بشر كوندرسيه بنهاية الاستعمار فى المستقبل القريب. [٩]

٤- نادى بمجانية التعليم، وأن التعليم العالى للمتميزين فقط دون التزام بصفة معينة، كما نادى بحرية العقيدة. [١٠]

٢- آراؤه المعرفية وعلاقاتها بالروابط الاجتماعية وتحقيق السعادة:-

اكتسب البشر مع نهاية القرن الثامن عشر المعرفة وتعلم الأسرار الطبيعية وبالتالى كيف يكونون سعداء، إذ إن المعرفة كانت قاصرة على عدد قليل من البشر، ومع التقدم ازدادت المعرفة على يد أناس يتمتعون بالنبوغ والعبقرية، مما جعلهم يستمرون فى النجاح فى مجتمع معادٍ للأفكار الجديدة، فالبشر يمتلكون القدرات التي تؤهلهم للتعاون والتحكم فى

مستقبلهم، وتحطيم الحواجز التقليدية، فالطبيعة لم تضع حدودا للتقدم [١١] ومن هنا التمس كوندرسيه من المعرفة وسيلة من وسائل تحقيق الروابط الاجتماعية وتحقيق السعادة، فرؤيته للمعرفة مكتسبة عبر الحواس عن طريق استعدادات فطرية، يقول كوندرسيه: "ولد الإنسان وهو مزود بالقدرة على تلقى الإحساسات والتعرف عليها، وتذكرها والربط بينها، فالمعرفة تتراكم وتتسع عن طريق مقارنة الترابطات، وفهم ماهو مشترك وماهو مختلف، وإضافة العلامات إليها جميعا حتى نميز بينها بطريقة أكثر سهولة مما يتيح الفرصة لخلق ارتباطات حسية جديدة "[١٢] أما عن كيفية نمو وتطور وتمايز القدرات على استيعاب المعرفة من إنسان لآخر فهى ترجع إلى التأثيرات الحسية البسيطة التي تتلقاها الحواس من الأشياء والموضوعات الخارجية المستقلة عن الإنسان، والتى تُحدث تكوينات حسية معينة تظل عالقة فى ذهن الإنسان، كما يساهم المجتمع فى تشكيل المعرفة عن طريق تواصل الإنسان مع أقرانه من البشر، ووسائله الاصطناعية التي قادته إلى اختراع تلك التطورات [١٣] وهنا يتضح تأثر كوندرسيه بجون لوك بصدد آرائه عن المعرفة، وتأكيده على دور الإحساسات وإرتباطها باللذة والألم، وإن الإنسان بما منح من طاقة تؤهله لتحويل هذه الانطباعات اللحظية، المؤقتة إلى مشاعر دائمة ذات طبيعة مقبولة (اللذة) وغير مقبولة (الألم)، فمن خلال هذه المشاعر وممارستها يتذكر الإنسان اللذات والآلام التي يعانيها غيره من الكائنات الحاسة الشاعرة[١٤].

وبفضل القدرة والطاقة على تكوين الأفكار والربط بينها استطاع الإنسان أن ينشئ بينه وبين أقرانه من البشر روابط من المصالح والواجبات، وأصبح علم الاجتماع ممكنا وفى مقدور البشر أن يتعلموا عن وعى كامل وعلم، وأصبح بإمكانهم أن يتعاونوا ويتحكموا فى مستقبلهم، وأصبحت سعادة الإنسان فى يده، وأن يحطم الحواجز التقليدية ويؤسس المؤسسات التي تطلق قدراته لمدى كامل من الطبيعة، فالطبيعة لم تضع حدودا للتقدم[١٥]، وإذا أردنا التعرف على القوانين والقدرات المتحكمة فى هذه القوى، ومعرفة ماهو مشترك بين البشر جميعًا، فإننا نلجأ إلى الميتافيزيقا [١٦] فإذا أراد الإنسان أن يتعرف على التطور وتتبعه من جيل لجيل، فإنه يحصل على صورة لتقدم العقل البشرى، فهذه الصورة تكشف عن التغيير والتأثير الذى تمارسه حيث تخضع مجتمعات البشرية خلال المراحل المختلفة لتطورها، فعن طريق التعديلات التي خضع لها النوع الانسانى وتحديده بطريقة متصلة خلال القرون العديدة، نستطيع تتبع ما طرأ عليه من تغيير، ومعرفة الخطوات التي اتخذها النوع الانسانى نحو تحقيق السعادة أو وصوله للحقيقة، فالملاحظات المتعلقة بماضى الإنسان وحاضره سوف تمدنا بالوسائل التي تساعدنا على تأكيد مسيرة التقدم والإسراع بها[١٧] فالتقدم يتحقق بمخزون المعرفة وقدرة المجتمع على توظيف ذلك المخزون فى عملية تنمية العمارة المادية للحياة بمستوى العصر، والقدرة على تحسين المعرفة العلمية.

فرضيات وأليات التقدم ومراحل تقدم الجنس البشرى :-

فرضيات وأدوات التقدم :-

١- المعرفة:

نظر كوندرسيه إلى التقدم نظرة عقلية متفائلة متطلعة إلى الأمام عن طريق سيطرة العقل البشرى، "فالتقدم حقيقة ثابتة، فهو تقدم لانهائى فى التنوير، يعمد على التفكير فى طبيعة الانسان واستبصاره تجاه تحديد هدفه، فلن تعود حركة التقدم إلى الوراء، فهو أمر حتمى، فتقدم العقل هو استعداد فطرى فى الإنسان"[١٨] وبهذا أخضع كوندرسيه الحياة الاجتماعية لفكرة التقدم القائمة على أساس الاستعدادات التي تدفع الانسان إلى تنمية قواه العقلية. ، ولايعنى قول كوندرسيه بالفطرة أن المعرفة فطرية، وإنما يعنى أن لدينا استعدادات تدفعنا للتقدم، وتنميتها هو الذى يفرق بين فرد وآخر. علاوة على أن رهان كوندرسيه على تقدم الجنس البشرى يعتمد على المعرفة القائمة على تلقى المحسوسات من العالم الخارجى وتأملها وبناء المعرفة العلمية التي بها يتحقق التقدم، وتحسين الجنس البشرى لذاته عن طريق التحسين المستمر فى ملكاته الذهنية، والأخلاقية العملية Practical Morality، والمادية، والجسدية، فالتقدم فى هذه الادوات يزيد من قوة الملكات ويوجه استخدامها [١٩]

فقد ارتبطت الطبيعة –وفقا لكوندرسيه– برباط وثيق لاينفصم فتقدم المعرفة، والفضيلة، والحرية، واحترام الحقوق الطبيعية للانسان، فهذه هى الخيارات التي نملكها بالرغم من أنها غالبا مايتباعد بعضها عن بعض بدرجة تجعل من الممكن عدم توافقها مع البعض الآخر، بل يجب أن تصبح مترابطة لايمكن الفصل بينها منذ اللحظة الأولى التي يتحقق فيها التنوير على مستوى معين فى عدد من الشعوب ويتخلل داخل المجموع الكلى لعدد كبير من الناس ذوى لغة معروفة شائعة، وتشمل علاقاتهم الاقتصادية كل مناطق العالم[٢٠]، فقد وجد كوندرسيه أن الاتفاق واجه العديد من المشاكل التي أدت إلى عدم تحقيق تقدم البشرية القائم على الاتفاق بين الطبيعة المرتبطة بتقدم المعرفة والحرية، والسبب وراء ذلك وجود الطغاة، لأن الاتفاق بين البشر المستنيرين يجعل الجميع أصدقاء الانسانية حيث يعملون معا لكمالها وسيادتها[٢١].

٢- التعليم واللغة العالمية :-

يعتبر التعليم أداة هامة من أدوات التقدم، فهو السبيل إلى المساواة الحقيقية، حيث إن عدم تكافؤ الفرص، وعدم إعطاء الفرصة للمواهب يشعر الإنسان بالحرج والمهانة، ومن هنا يجب على الدولة "أن تعلم جموع الناس، حيث يحتاج كل فرد أن يعرف كيفية إدارة شئونه الخاصة، مع التنمية لقدراته الإنتاجية ومواهبه، وأن لا يشعر بالغربة تجاه العواطف النبيلة

والمشاعر الحساسة التي تميز الجنس البشرى، ويجب أن يعرف حقوقه، ويستخدمها، ويدافع عنها"[٢٢] وإذا ما ارتبط التعليم بالتقدم فى العلوم، فقد نتوقع تحسينا فى معتقدات الجنس البشرى غير المحدودة.

ولتحسين فن التعليم وتحسين العلوم توجد وسيلتان: إحداهما أكثر شمولا ولاتشوبها شائبة فيما يطلق عليه بالطرق التقنية، والآخرى تأسيس لغة عالمية، فتكوين مثل هذه اللغة، إذا ما اقتصرت على التعبيرات بعبارات بسيطة ودقيقة، مثل تلك التي تشكل منظومة العلم أو ممارسة فن ما، ستكون فى الاتجاه المعاكس لما هو خيال ووهم، بمعنى أن تنفيذها سيكون عمليًا للغاية بالنسبة لعدد كبير من الموضوعات والأشياء، وإن العقبة التي تحول دون امتدادها للآخرين ستكون فى الحاجة الملحة إلى الإقرار بمدى كون الأفكار الدقيقة والمفاهيم المحددة جيدًا المتوفرة لدنيا فى الواقع، مفهومة لدى كل عقل بمعانيها الدقيقة نفسها، كما يظهر أن تلك اللغة، التي تتحسن كل يوم وتكتسب مدى أكبر لاينقطع، قد تكون الوسيلة التى تجعل الأشياء والموضوعات فى متناول الذكاء الإنسانى، والدقة الإنسانية، والضبط الإنسانى، مما يسهل معرفتنا بالحقيقة، ويعصمنا من الخطأ، وعندها ستكون مسيرة كل العلوم معصومة من الزلل كما فى الرياضيات، وأن تكتسب العبارات فى كل منظومة بقدر ماتسمح به الطبيعة، [٢٢] إن القوانين العادلة والجيدة، ونظام التعليم الحر سيوجهان معا مظاهر عدم المساواة الاجتماعية التي تدمر الإنسان، كما سيضعان الضوابط والاحتياطات ضد عدم المساواة الطبيعية والحتمية، بطريقة لاتحتقر أحدا بل مفيدة للجميع، وإن السلطة النهائية الوحيدة للعلم، والسلطة التي لاتقوم على قوة تعسفية اعتباطية، هي سلطة تقوم على العقل والاستنتاج الرشيد، وكلما زادت الدقة العلمية ونمت، زادت إمكانية ضبط المجتمع من أجل خير الجميع، وقد تتحسن أو لاتتحسن قدرات الناس الفطرية innate capacity، ولكنهم يحصلون على الأثر من تحسن الأدوات العلمية، فتزايد ودقة الآلات وكمالها يحرر الإنسان من معظم الأعمال التي تضيع وقته وتستهلك طاقته وتؤخر تقدمه. [٢٣]

فقد جمع كوندرسيه بين تيارين فكريين فى رؤيته للتعليم الأولى: مسايرة عصر التنوير للتقدم بلا حدود، الثانية : خطاب الثورة الفرنسية الذي ينادى بالمساواة والحرية والديمقراطية.

كما أن من أسباب إعاقة العقل الجهل والتحيزات الخاصة لكل مرحلة من مراحل تقدمنا، والآراء المسبقة التي امتد تأثيرها وسلطانها إلى فترة طويلة، لأن الناس يحتفظون فترة طويلة بالآراء المسبقة والتحيزات الخاصة بالطفولة، والبلد، ومراحل العمر حتى بعد اكتشاف الحقائق التي تكفى للقضاء على هذه التحيزات والتخلص منها، ويشير كوندرسيه إلى ثلاثة

أعداء يجب محاربتهم بالعقل وهى تحيزات الفلاسفة التي تضر بتقدم المعرفة، وتحيزات الطبقة غير المستنيرة، والتى تؤدى إلى إعاقة انتشار المعرفة ،وتحيزات الأفراد ذوى التخصصات القوية التي تقف عقبة فى طريق الحقيقة [٢٤].

٣- المساواة بين الجنسين (حق المرأة):-

أكد كوندرسيه فى المرحلة العاشرة من المخطط أن من بين أسباب تقدم العقل البشرى هو القضاء على عدم المساواة فى الحقوق بين الجنسين، وإذا كان القرن الثامن عشر قد عُرف بأنه "عصر المرأة، "فقد تناول كوندرسيه حقوق المرأة بالتوجيه والوضوح والقوة نفسها، علاوة على ذلك فإن الإدعاءات المستنيرة للمساواة بين الجنسين قد أكدت على إنسانية المرأة، فقد أعرب كوندرسيه عن حق المرأة فى المواطنة، فالمرأة لها طبيعة متميزة تتناسب مع أداء واجباتها المنزلية، وفى الوقت نفسه لها حق التصويت، ولها حقًا التعليم، ولها حقوقها السياسية الكاملة، فالفارق بين الرجل والمرأة ماهو إلا فارق طبيعى، كما أن للمرأة حق فى التخطيط لحملها على نحو مقبول، والتزام الرجل بمراعاة الطفل بعد الولادة [٢٥].

والسؤال الذى يطرح نفسه ماذا لوتخلت المرأة عن شئونها الداخلية؟ يرى كوندرسيه أنه من الضرورى تجاوز أى اعتراضات بعدم المساواة، فلا داعٍ للخوف من أن تتخلى المرأة عن أطفالها ومنزلها وأعمالها، وينصح المرأة باختيار العمل غير الروتينى الذى ينمى من قدراتها العقلية، ويجعلها مكتفية بذاتها، وقد نصح طفلته الرضيعة بذلك، وطالب أولياء الأمور بأن يعدوا بناتهم ليكونوا قادرين على كسب العيش. [٢٦]

٤- التقدم نحو المساواة :-

إن التقدم نحو المساواة هو العنصر الأساسى الذاتى فى الفكرة، فإن جعل البشر متساويين تقريبا يمثل قيمة أخلاقية، وهدفا إفتراضيا مستقلا للسعى من أجله، إن آمال المستقبل لدى كوندرسيه تدعو إلى المساواة، وصور عدم المساواة تعزى إلى نقص ميكانيكى فى الإدارة والفن الإجتماعى، وإن الوصول إلى حالة من المساواة النسبية تعنى أن نصبح مواطنين أحرارًا فى المجتمع، وإن البشر جميعا لديهم القدرة على الاستنتاج والاستدلال التي يجب تغذيتها بالمعرفة حتى تصير هذه القوى العقلية قادرة على أن تحرر من أوجه التعصب التقليدية وخاصة الخرافات الدينية، [٢٧] ويمكن تلخيص آمال الجنس البشرى فى ثلاث نقاط: القضاء على عدم المساواة، التقدم نحو المساواة داخل بلد ما، وأخيرا تحسين حقيقى للإنسان عن طريق تحسن وسائل فن العلاج، والدواء، والطرق الصحية فى المعيشة، والقضاء على الثروة المفرطة والفقر المدقع، وستكون هناك ضمانات لصحة جسمية أفضل وصحة عقلية

أفضل، وسوف يزيد عمر الإنسان، ويتمكن العلم من التحكم فى المكونات الوراثية التي ينقلها الأباء إلى اللآبناء، والتى هى المسئولة فى جزء منها عن البيان الجسمى والذكاء وقوة العقل والمشاعر الروحية. (٢٨)

مراحل تقدم الجنس البشرى :-

قسم كوندرسيه التقدم إلى عشر مراحل، قدم من خلال المراحل التسع الأول الخصائص الرئيسة التي تميز كل مرحلة من هذه المراحل، وقد خصص المرحلة الأخيرة لمستقبل الإنسان، ومن ثم تنقسم العصور العشرة إلى ثلاثة أقسام :- الأول يجمع العصور التي تمكننا من التنبؤبالتقدم الإنسانى، والثانى يتألف من ستة عصور يبدأ بالإستناد على سلسلة الوقائع التي يتفوق فيها الإنسان بالعقل والتفكير المنظم، والثالث يتألف من ستة عصور يبدأ بالاستناد إلى سلسلة الوقائع التي يتفوق فيها الإنسان بالعقل والتفكير المنظم، ويتألف الجزء الأخير من العصر العاشر، عصر التقدم المستقبلى للجنس البشرى. (٢٩)

المرحلة الأولى :- صيد وزراعة، الاتحاد فى قبائل، حيث الأرض الخصبة، فقد قدمت الطبيعة، تلقائيا، مايكفى لحاجات البشر، فهى مرحلة المعارف الأولية الممتزجة باعتقادات باطلة، روج لها أناس أحدثوا انقساما اجتماعيا تمثل فى ظهور فئة تتبنى المعارف وفئة ثابتة اكتفت بمعتقداتها.

المرحلة الثانية :- مالت إلى الاستقرار، وبروز عهد الرعاة والزراع، وتحسين أدوات الزراعة، وتحقيق فائض فى الإنتاج..

المرحلة الثالثة :- تميزت بتطور المجتمعات الزراعية، وظهور الكتابة الأبجدية، وبزوغ طبقة الزراع والتجار، وسيطرة معتقدات سمحت للجهل أن يسودها، وللأحكام المسبقة أن تعممها.(٣٠)

وقد ظلت بعض الشعوب فى إحدى المراحل التي أشرنا اليها، ولم يتأثروا بالتفاعل والتجارة مع شعوب أخرى على درجة عالية من المدنية، ولم يحققوا أى جهود خاصة لتقدمهم.

ونلاحظ فى هذه المراحل السالفة الذكر مايلى :-

١- إن التطور الذى تحدث عنه كوندرسيه فى كل مرحلة تطور منطقى، وليس تطورًا تاريخيًا، فلم يعتمد كوندرسيه على أى معرفة أنثروبولوجية، وإنما اعتمد على إعادة بناء الماضى على نحو تأملى، وظل يردد عبارات الانسان المنتج أو المكتشف. علاوة على أن كل مرحلة يتقدم فيها العقل بمقدار يفى بمتطلبات تقدم هذه المرحلة،

ورغم أن كل مرحلة من مراحل التقدم تمثل حقبة معينة، إلا أنها جميعا تؤلف مجرى واحدا وتتنظم فى إطار واحد هو التقدم البشرى الشامل.

٢- تجاهل كوندرسيه ذكر حالة الطبيعة الأولى أو الشيوعية البدائية – كما فى مخطط ماركس – فقد كان كوندرسيه انثروبولوجيا حيث تحدث عن المنهج القبلى كالمرحلة الأولى للتاريخ حيث تتوافر المعرفة المباشرة عنها.

٣- ميز كوندرسيه هذه المراحل المبكرة بظهور طبقة الكهنة التي تأسست على الحفاظ على الباطل، إنهم الدجالون كهنوتيون Clerical Impostors الذين صنعوا الجنس البشرى من التقدم بحرية، بوصفها خبرة طبيعية، ومن هنا ظهرت الأفكار التي تدعو إلى الإيمان بالقوى الخارقة الطبيعية [٣١].

المرحلة الرابعة والخامسة :- تقدم الفكر البشرى عند اليونان حتى الإسكندر الأكبر، ولكن موت سقراط جسد مثالاً حيًا للصراع القائم بين الفلسفة والمعتقدات الشعبية اعتبره كوندرسيه، صراعا متواصلا، جعل رجال الدين عائقا أمام تقدم المعرفة العلمية وتطور التنوير الفلسفي.

المرحلة السادسة:- عصر انحطاط التنوير إلى عهد فترة الحروب الصليبية، وعهد رجال الكنيسة، والاستبداد الدينى، وصكوك الغفران، واقتحام الدين فى مجالات الحياة الإجتماعية.

المرحلة السابعة :- بداية التقدم العلمى ونهضته حتى اختراع الطباعة، وهى المرحلة الوسيطة وهى فترات غير سعيدة، فالعرب هم الذين حافظوا على نور المعرفة وأخيرا جاءت مرحلة الطباعة، فجعلت التنوير ممكنا.

المرحلة الثامنة :- تجسد فيها الصراع بين العقل والسلطة من أجل السيادة والتفوق والانتصار.

المرحلة التاسعة :- بدأت بديكارت الذى طالب بالتحرر من السلطة، وسيادة العقل، وتواصل هذا النهج الفكرى من جانب الفلاسفة والعلماء، وفى نطاق الفعل تميز الصراع بالثورة الأمريكية، وبرز فيها أناس عظام، وقد تحرروا من أغلالهم، وهنا رأى كوندرسيه أن الثورة لامفر منها سواء جاءت بطريق سلمى أو بواسطة العنف، وفى ختام المرحلة التاسعة لم يرحب كوندرسيه بالثورتين الفرنسية والأمريكية فحسب، بل تنبأ بثقة بقيام ثورة أخرى يوما ما فى طريقها لكل الجنس البشرى. [٣٢]

وهكذا ينتهى هذا الجزء من المخطط ونستطيع أن نضيف ملاحظتين :

الملاحظـة الأولـى:- تجاهل ذكر اليهود، فكراهية كوندرسيه للأديان أدت به إلى تجاهل إسهامات العبرانيين Hebrew فى تقدم الجنس البشرى، كما تجاهل أهل الشرق أيضا وتاريخهم وحضارتهم، ولم يرد ذكر الصين إلا في كلمات قليلة، وغير الأوروبيين الذين شاركوا فى مسيرة التقدم الإنسانى وهم العرب.

الملاحظة الثانية :- قد اختار كوندرسيه من حوادث التاريخ أناسًا مختلفين للمقارنة والجمع بينهم، لا التاريخ الافتراضى لشعب معين، وهذه الوقائع المختارة تصبح فى المقابل سلسلة أحداثنا، لا سيما العقلية منها، والتى تشكل تقدم العقل البشرى كصورة تاريخية. (٣٣).

المرحلة العاشرة :-وهى علم الفن الاجتماعى، وافتراض مانأمله للوضع المستقبلى.

إن سرد الاحداث فى الأحقاب التسعة الأولى فى التاريخ البشرى قد كشف عن واقعية الجنس البشرى حيث كان يسعى دومًا وراء المنفعة والفائدة، وثمة كتابات كثيرة حيث يطلق على التقدم هدفًا غريزيًا instinct او هدفًا متساميًا Transcendel، وكلما تم تحديد حقبة بعد حقبة، تم وصف تفصيلى للاكتشافات والاختراعات المادية والوثبات الاخلاقية Moral leaps، وأصبح من الواضح تماما أن هناك حافزًا نفعيًا واحدًا أساسيًا فى الإنسان، وإذا ما تُرك وشأنه، فهو بالتأكيد سيتجه إلى ماهو مفيد وممتع.(٣٤)

فقد أدرك الانسان فى المرحلة البدائية أن الممارسة توفر قليلا من جهده وطاقته وتكلفته، وبالتالى تقدم له كثيرا من المتعة، لقد كانت هذه هوية الجنس البشرى بقانون أقل جهد، فمبدأ المنفعة هو القوة المحركة فى كل زمان ومكان، لقد انتجت الحاجات المشتركة حلولا نفعية مماثلة، إن مؤسسات مثل الإقطاعيات feudalism لم تكن غريبة على المجتمع الأوروبى، الا أنها عالمية الشكل، فقد وجدت فى كل زمان ومكان فى العالم، وفى كل مراحل الحضارة وفى كل وقت تم فيه احتلال الأرض من قبل محتل يعتبر انتصاره إرثا فى صراع غير متكافىء (٣٥).

المحور الثانى :- المنطلق الفلسفى التنويرى للتقدم وأبعاده المختلفة:-

١- الأبعاد الاجتماعية للتقدم:-

كان إيقاع التقدم فى بدايته يطيئا، فبدأ بالأسرة، ثم المجتمع، واتحاد فى قبائل من أجل التعاون ورد العدوان، مما أدى إلى الشعور بالولاء والانتماء والكراهية للأعداء، فقد ساعدت الكراهية على تولد الشرور وفى الوقت نفسه ظهور أنماط من السلوك الإنسانى مرتبطة بالأرض، ومحتفظة بروابط عائلية قديمة ينتهى إليها نسبها، ونتيجة الحروب تناثرت القبائل، ونتيجة ارتباط الإنسان بالأرض، زاد الانتاج وارتبط صاحب الأرض بها. (٣٦)

وقد قسم كوندرسيه العمل إلى فريقين: فريق يعمل نظير أجر، وآخر يمتلك ويعيش على نتاج الأرض دون عمل وانقسم المجتمع إلى ملاك ومزارعين، فظهر النظام الاقطاعى تلك اللعنة التي لم تعد مألوفة فى أجواء اليوم إلا انها لها صداها فى كل أرجاء العالم، ولم يستقر المجتمع نتيجة الحروب، وازداد ظلم الرؤساء وحرمان الآخرين من ممارسة الحكم، وكبت الناس، وتجاوزت الأسر الحاكمة صبر الجماهير، بما أدى إلى خلع هؤلاء وطردهم من البلاد(٣٧)، وفى ضوء ذلك تخلصت البلاد من الاستبداد، واذا تعرضت القبيلة للغزو، نجم عنه استبداد قصير الأمد، سرعان ما تخلص من الناس بالقوة، وقد سعى أعضاء هذه المرحلة إلى اكتساب معرفة جديده واستخدام مايملكون من معرفة فى خداع الناس والسيطرة علي عقولهم(٣٨)، وخير دليل على ذلك السوفسطائية وتعاليمهم المزيفة من أجل مصلحتهم الخاصة، وعندما ضاق اليونان ذرعا بالملوك الذين وصفوا أنفسهم بأنهم آبناء الآلهة، وقسم اليونان أنفسهم إلى عدد من الجمهوريات التي عرفت الحكم الوراثى، وقد شهدت المرحلة التالية تدهورًا سريعًا للعقل البشرى، نجم عنه جهل وهجمية وقسوة وفساد، وأصبحت إنجازات الإنسان مجرد حلم وخداع خلقه الوحيد التسامح، وقد انقسمت هذه المرحلة إلى غرب متدهور لايعرف سبب تدهوره، وشرق يعانى من تدهور أقل، وقامت الحروب من أجل الاستيلاء على الأرض والناس، ورغم هذه القسوة، إلا أن مبادىء الديانة المسيحية استنكرت العبودية. (٣٩)

وقد حافظ الناس على شجاعتهم عند حدود آسيا وأفريقيا، فقد كانت العوامل الجغرافية سببا فى عزلهم بعيدا عن غزو الفرس والرومان والإسكندر، واتحدوا باسم اللغة والدين، واعتمدوا على الرعى، والتجارة، والسرقة، وتشكلت أمة عظيمة رغم عدم وجود رابط سياسى لجميع الأجزاء المختلفة(٤٠). ومع بداية القرن الثامن عشر استقلت ألمانيا، وظهر الملوك والقساوسة، وشكل الناس نظاما للدفاع عن أنفسهم وتحديد مصيرهم، فالحرية حق موروث لكل الناس، وفى فرنسا نبعت أفكارهم من إحساس عميق بالظلم، فالثمرة الوحيدة لجهودهم هى العنف الموروث. (٤١)

ونتيجة تقدم فنون الحروب، ظهرت المساواة الحقيقية بسبب إختراع البارود الذى هدد الجنس البشرى، واستيقظ الناس من سباتهم العميق وأثر ذلك في نشاطهم، وقد دونت حقوق الإنسان فى كتاب الطبيعة، واستبدلت سلطة الناس بسلطة الجدل، وانخرط الناس فى دراسة الكتب وآراء القدماء أكثر من ظواهر الطبيعه مما جعل الناس يعانون من نقص فى المعرفة، ولم يأت الوقت لتجاوزه، وقد شهدت المرحلة التالية جرائم القساوسة ولم يتم العقاب عليها، فسادًا وصمتًا مخيفًا شجع الناس على تنفيذ المزيد من الأعمال الوحشية، فمن مرحلة الإقطاع انبثقت الحضارة الغربية، وانهارت المعرفة فى زمن الحروب الصليبية، زمن الخرافات الكهنوتية[٤٢].

أسلوب التعلم (اللغة والكتابة):-

نتيجة لتطور المجتمع تطورت اللغة، فهى اختراع المجتمع، فالقوس واللغة من مميزات العبقرية البشرية، فالأول أكثر رشاقة لأنه أدة عمل، كانت نتيجة ترابطات جديدة ميزت الطبيعة البشرية للقيام بتكوينها، وكان ثمرة مكافئة لتأملاتهم وجهودهم، أما الثانى فهو اللغة وهى أكثر بطئًا نتيجة لتأملات أتيحت لكل الناس، وعادات قاموا بمقارنتها خلال مسيرتهم[٤٣] ومع التقدم أصبحت اللغة أكثر غنى، وظهرت اللغة الهيروغليفية، ثم الأبجدية ثم ظهرت الكتابة، فكانت بمثابة وسيلة للمحافظة على التراث ونقل المعرفة، ثم دخلت البشرية فى مرحلة جديدة هى الطباعة، فنحن ندين للطباعة، لأنها أدت إلى تنوع فروع المعرفة، فساعدت على نقل الأفكار السياسية والاقتصادية والفلسفية إلى أماكن بعيدة، وجعل من السهل على المؤلف أن يطور ويوسع فكرته، وهذا بدوره أدى إلى استخدام اللغة اللاتينية فى الفلسفة والعلوم، وهذا ساعد على تقدم العقل البشرى، وانقسم الناس إلى قسمين: طبقة متعلمة وأخرى عقبة أمام التقدم، ولو توقف الجنس البشرى عن التعليم كما هو فى الشرق، فإن التقدم فى العلوم سوف يتوقف[٤٤]، وإن كان هذا النقد فى غير موضعه لأن العرب أصحاب حضارة وتقدم، ففى العصور الوسطى كانت أوروبا فى ظلمات الجهل، والعرب فى قمة حضارتهم وتقدمهم، فالغرب عرف العلوم عن طريق العرب.

الفنون :-

نجمت الفنون نتيجة استقرار الانسان، فبحث عن إشباع مشاعره وأحاسيسه، فاستطاع أن ينظم حركاته من أجل المتعة، فعرف الفنون من أجل التسلية، وعرف الآلات الموسيقية، وتطورت الفنون فى المرحلة الثالثة، فصنعوا الأدوات الموسيقية، ووصلت فى المرحلة الرابعة إلى درجة الكمال عند اليونان لتمتعهم بالحرية والعبقرية والرقى، لذا ربط كوندرسيه بين

الفنون والأخلاق، حيث إن الفضائل وراءها تقدم فى الأخلاق، ومع تقدم الفنون فى القرن السابع عشر تقدمت الفنون نتيجة لتقدم العلوم واعتمدت الفنون على التقدم العلمى، فكانت متقنة وبسيطة وظهرت أداة جديدة وأدوات تضيف إلى قوة الإنسان وتحسن جودة إنتاجه، وتقلل من الوقت والعمل(٤٥).

الدين :-

ظهر الكهنة فى المرحلة الثانية وكرست بعض القبائل نفسها للواجبات الدينية، وقد أفسح كوندرسيه المجال أمام الأديان غير السماوية حيث تميزت هذه المرحلة بظهور الكهنة والدجالين الذين منعوا الجنس البشرى من التقدم بحرية بوصفها خبرة طبيعية، وبالتالى أصبح الدين فى هذه المرحلة قوة سلبية كما قال كوندرسيه (٤٦).

وفى المرحلة الرابعة قامت شعائر خاصة باحتكار الأفكار الدينية والخرافات، وسيطر الكهنة على العقول، ويتشابه الدين فى المرحلة الرابعة مع الطقوس والتماثيل، ولم يمارس الكهنة أى عمل، وتم واضطهاد الفلاسفة، وأصبح الدين في موقف عداء مع الفلسفة عند اليونان، فكانوا يخافون من الفلاسفة لأنهم يكشفون حقيقتهم أمام الناس، وبالتالى يفقد الكهنة قوتهم، وأتُهمت الفلسفة بالكفر وعدم التقوى، وأصبح الكهنة غير قادرين على تبصرة الناس، فانكشف أمرهم، وظهر السيد المسيح –عليه السلام – فى فلسطين، وأتى بمعجزات، ووقع الغرب فريسة للبربر وتخلفت المسيحية عن النصر، وحرفت البشرية بفضل بالجهل النصوص الدينية (الإنجيل)(٤٧) ومع المرحلة السابعة ظهرت صكوك الغفران، وهذا أدى إلى انفجار مارتن لوثر، وانتشرت بذور العلمانية، وأصبح للإله دور صغير فى الصلوات، وأعلن لوثر أن هذه المؤسسات المتمردة لم تكن مسيحية، فكفر بدين القساوسة، وقد دعم الزعماء والملوك السلطة الكهنوتية من أجل سياستهم، وظهر عدم التسامح الدينى لدى كل الطوائف، وكان فى يد رجال الدين، وظهرت طبقة فى أوروبا تنادى بسيادة العقل، ونظرات إلى الأديان على إنها اختراع بشرى، وظهرت نظرية الاعتقاد [الخالق (دون أديان) التي تنادى بأن الروح تنتهى بانتهاء الحياة، وليست قوانين للطبيعة، فلا يوجد حاكم للعالم يمكن الاعتراف به ولا عقاب ولا آخرة بعد الموت، وقد تولدت حرية الفكر عند المسيحيين الأوروبين، وظهرت إعتقادات دينية متضاربة، يسودها جو من التعصب. (٤٨)

لم يكن كوندرسيه ضد الدين، وإنما ضد التعصب الدينى والفهم الخاطىء للدين، فالدين يجب أن ينحصر فى أمور الهداية والأخلاق فقط ولايجب التدخل فى الأمور السياسية والفكرية، فهو تهذيب للأرواح والنفوس، ولايمكن الاستغناء عنه(٤٩) فالتقدم هنا بمثابة خلق إنسانى ذاتى متحرر من الإرادة الإلهية، أو توجيهها، لقد كانت صرخة كوندرسيهمدوية، إن دماء الملايين الذين سُفكت دماؤهم باسم الرب، مازالت تنادى بعدم التسامح، إن هزيمة الحق والفضيلة دائما مؤقتة 'فلن تسطع أى قوة للعنف أن تمنع انتشار أفكار جديدة (٥٠)

العلوم :-

فى المرحلة الأولى كان التقدم طفيفًا فى العلوم، وخاصة في علمي الفلك والطب، وفى المرحلة الثانية اكتشفت النباتات وفوائدها، وفى المرحلة الثالثة ظهرت أخبار عن التشريح، ومعرفة النباتات، وركز العقلاء على الفلك[٥١]، فقد حققوا أقصى درجة من المعرفة الممكنة دون استخدام التليسكوب أو النظريات العليا، وظهر الطب والتشريح والرياضيات فى المرحلة الثالثة، فالفضل يرجع للرياضيات فى انجاز العمليات الحسابية البسيطة التي تفوق قدرتنا العقلية المجردة، وقد ضاعفت هذه المناهج قوة العقل البشرى، فاستطاع الإنسان أن يتقدم إلى مالا نهاية، وظهرت الهندسة، إلا إنها عجزت عن التوصل إلى ما توصل اليه فيثاغورث[٥٢]، وفى المرحلة الرابعة تأسست بنجاح فى مدرستى طاليس وفيثاغورث، إلا إنها لم تصل لدرجة العلوم الهندسية التي وصل إليها الشرقيون فى كلياتهم، وحل أفلاطون مشكلة المكعب، واكتشف تلاميذه التتابع المخروطى وحدوده الأساسية، وبذلك فتحوا آفاق المعرفة أمام العقل[٥٣]، وقد ساعد استقرار البلاد على نمو العلم، وشهدت المرحلة الخامسة الفيزياء، كما انفصلت العلوم عن الفلسفة، وأصبحت لا يهتم بها إلا المثقفون، ووجدت العلوم ملجأً حصينا فى مصر، وكانت مكتبة الإسكندرية منارة للعلم، وشهدت المرحلة السابعة تقدم العلوم والهندسة والجبر، وقامت الرحلات الاستكشافية، فأتاحت للإنسان التعرف على عالم جديد، واكتشف الغرب البارود، وشهدت الإنسانية المرحلة الثامنة، وظهرت اللوغاريتمات التي أظهرت العمليات الحسابية، وظهر جاليليو الذى أثرى العلوم بالاكتشافات المفيدة، فطبق اكتشاف التليسكوب على الفضاء، واكتشف دوران الأرض، وهو أول من وضع نظرية رياضية للحركة، كما أبطل كوبرنيكوس نظرية بطليموس فى دوران الأرض مؤيدًا جاليليو[٥٤]، وفى القرن السابع عشر تم الاتصال بين الفنون والعلوم، وهذا ساعد على التقدم والاستفادة من تطبيق الرياضيات لما لها من دقة، كما ساهمت فى تقدم علم الميكانيكا، واكتشاف آلات رصد واتقان التاريخ الطبيعى الذى يدين للكمياء، وكشف أسرار الطبيعة، وساعدت الفيزياء والكيمياء على التشريح، واستفادت العلوم من حساب التفاضل والتكامل للاحتمال والتنبؤ، فمثلا الصدفة كان معناها الحقيقى الاهتمام بدراسة التفاضل والتكامل، وهذه التطبيقات تعلمنا التعرف على درجة الاحتمال القوى للرأى، دون تضحية أو انتهاك للعدالة، واتضحت عيوب ومميزات التصويت، وطرق تحديد التصويت من أجل المصلحة العامة. [٥٥]

الأخلاق :-

تتوقف الأخلاق على المعرفة، إذ إن مستوى معيشة الإنسان يتحدد بمقدار تفكيره، فكل إنسان له حساسية أخلاقية مباشرة وتلقائية، ويمكن إرجاع مرتكزاتها إلى المنفعة، ولا يتم

ذلك إلا بالتربية أى الإحساس الكونى، فكل شخص له إرادة عقلانية تمكنه من وضع الخطط وتنفيذها، ومن هنا رفض كوندرسيه أخلاق الزهد والتقشف والصرامة، ودعا إلى أخلاق إنسانية قائمة على التسامح، والسلام ونبذ العنف، وقد ظهرت الفضائل لدى الشعوب الزراعية فى المرحلة الثالثة واختلطت بالكرم [٥٦].

وقد رد كوندرسيه الفساد الأخلاقى إلى انحطاط العلوم وتدهورها، لذا ربط بين المعرفة والأخلاق، لأن المعرفة الحقة هى التي تهذب الإنسان، كما رده أيضا إلى الفتوحات العسكرية، وقيام الامبراطوريات التي تؤدى إلى انزلاق الجنس البشرى [٥٧] ومع مطلع المرحلة الرابعة ارتبطت الأخلاق بالسياسة ومهدت بظهور التنظير فى المرحلة الخامسة على يد فلاسفة اليونان، وظهرت الرواقية ودعوتها للتحرر من المخاوف والتسامى عنها، والأبيقورية وربطها السعادة باللذة وتجنب الألم، واتباع الفرد لميوله الطبيعية، بغض النظر عن معرفته كيفية تنقية هذه الميول وتوجيهها، ونتيجة احتكاك الغرب بالعرب تغير طباع الأمراء إلى الرقة والمروءة، وشجعتهم على التغيير، إلا أن هذا لم يصل إلى عامة الناس، وجلب القليل من المساواة، وقد أشاد كوندرسيه بدور العرب فى الأخلاق، لأنهم بذروا بذور الإنسانية التي أثمرت فى العصور المزدهرة، ومع بداية ثورة الإصلاح على يد لوثر، قامت الأخلاق على الخداع، ووقف الكهنة أمام تأسيس علم للأخلاق، فظهرت المذابح الدينية والحروب المقدسة وظهرت العبودية والنفاق، والإتجار بحياة الناس، إلا أنه فى خضم هذا الأهمال غير الأخلاقي أظهرت الكرامة الإنسانية رجالاً نبلاء لهم مواهب ضد الفساد [٥٨].

الابعاد السياسية والقانونية للتقدم:-

عندما تجمعت القبائل واتحدت من أجل رد العدوان شعرت القبيلة بأنها فى حاجة إلى التعاون، وإلى قائد من أجل الدفاع عن النفس، ومن هنا كانت البدايات الأولى للتنظيم السياسى، والأخذ بمبدأ الشورى من أجل المصلحة المشتركة[٥٩].

وعندما كثرت القبائل، تباعدت وتعددت الشعوب، فكان لكلٍ قائد حرب، وظهرت العبودية تتجه نحو استغلال الفقراء وعدم المساواة فى الحقوق السياسية، أما فض المنازعات فكان يتم من خلال شيوخ القبائل فى ضوء العقل الطبيعى أو قانون الطبيعة، أو وفقا للتقاليد السائدة، ومن خلال مجموع هذه الأحكام ظهر نظام قانونى تقليدى تتمسك به القبيلة لمواجهة منازعات المجتمع، كما تم تحديد الملكية والميراث، وظهر خداع الناس، وظهر التقدم فى السياسة لأول مرة فى اليونان، حيث التنظير للقوانين على يد الفلاسفة، رغم أنهم لم يسندوا إليهم أى سلطة، وتشوهت النظم السياسية واختلطت بالأفكار الخرافية، فخضعت السياسة

للأهواء وتأسست القوانين فى هذه المرحلة على الأهواء والعواطف، وتوارثت الحكم، ولم نجد فى هذه المرحلة أى بوادر سياسية[٦٠]، وقد أشار كوندرسيه إلى الاختلافات بين التشريعات اليونانية والشرقية القديمة، فالأولى نابعة من ميثاق جمعى يتيح المحافظة على الحرية، أما الثانية فقد كانت تتصف باستعباد الرعية لصالح الطبقة الحاكمة، وعندما أصبح المجتمع أكثر تعقيدا تولد الشعور بالحاجة إلى القانون، ليحدد صور العقوبات على الجرائم والاتفاقات، بالإضافة إلى تحديد كيفية تطبيق القانون، فالطغيان ثمرة الفتوح العسكرية، والطاغية يحكم عن طريق الإرهاب والخوف يحيط بقواد جيشه وحرسه الخاص، علاوة على سيطرة جيشه على جميع المناطق بواسطة خبراته، كلماته مطاعة، ولاتستطيع قواته أن تنافسه على السلطة، إذا حاولت فعل ذلك، فهذه المرحلة ماهى إلا ثورة على الطاغية[٦١]، ومع ذلك فهي ثورة من أجل الاستبداد، فالجيش المنتصر يمارس الاستبداد نفسه، ورغم ذلك انتقل المجتمع إلى مرحلة تقدم العقل الإنساني عند اليونان، حيث هيأت الظروف والمناخ الفرصة لهذا الشعب للاستمتاع بالحرية والتقدم فاختصت كل طائفة بوظيفتها وعرف الناس الحقوق المتساوية[٦٢].

وفى المرحلة السادسة ظهر الاستعلاء والعبودية، واستعباد الانسان، إلا أن استنكار العبودية كان بمثابة البذرة الأولى فى الثورة من أجل المصير البشرى، فكانت فترة تعصب لم تشهد جيشًا يدافع عن الشعب، فالشرق حكمه القساوسة، والغرب حكمهم الكهنة، وحاولت روما فرض قيود الاستبداد على العالم كله، وبذر الكهنة الاغتيال وقتل الوالدين باسم الدين، وصنعوا الحركات إلا أنهم لم يجدوا منظمًا لهذه الحركات[٦٣].

ومع تطور التنظيم السياسى فى هذه المرحلةظهرت ثلاث قوى :- ملك، مجلس شورى، ومجلس شعب لتناول أسئلة الناس، والاختلاف بينهم يكمن فى السلطة التي يتمتعون بها، وقد حدث صدام بين الكهنة والملوك، فالملوك لجأوا إلى تشجيع التعليم ضد الكهنة، فالنزاع بين القساوسة والحكومات منح العقل مكانة جعلته يقف ضد الاستبداد والتعسف واغتصاب السلطة، وهذا يدل على الجهد المبذول من أجل مصير الأمم والحرية، فالدساتير التي يخصون بها طبقة النبلاء هى أساس الحقوق الطبيعية للجنس البشرى، فهولاء الذين ولدوا من أجل الحرية شعروا بأهميتها من خلال دراسة القانون والتاريخ، حيث التعليم جعلهم يواجهون توازن القوى العسكرية للاستبداد الاقطاعى. [٦٤]

٣- الأبعاد الاقتصادية للتقدم :-

بدأت حياة الانسان الأول بالاعتماد على الزراعة لسد حاجات الانسان، فشعر أن الزراعة لا تكفى، فانتقل من الزراعة إلى الرعى، وهنا شعر الإنسان بالاستقرار الاقتصادى،

واكتسب معرفة عن كيفية التعامل مع الحيوانات المستأنسة وتحسين سلالتها، وأصبح المجتمع الانسانى أكثر رقة، وتفاوت الناس فى امتلاك الثروة، فظهرت فكرة الإحسان والعطف على الفقراء، ونتيجة انتشار التجارة واتساع مجال المقايضة ظهرت العقود، واهتمت الحكومات بفرض الضرائب[٦٥]، ومع بداية العصر الحديث حمل فى طياته تقدم إقتصادى من حيث تأسيس القوانين لتحديد الوزن والحجم والطول، لذلك كانت الحاجة لسك العملة وتقديمها كمقياس عام للقيمة، وتأسست المؤسسات المتحكمة، والتى تمد الناس بالخدمات وهذه المرحلة تُركت لطمع الحكومات، والصدفة، والأطماع الشخصية، حتى جاء أحد تلامذة ديكارت "تون دى توت" وأقر بأن الاقتصاد السياسى على معيارى له مبادىء الفلسفة والرياضيات نفسها، إلا أن هذا الرأى لم يحقق إلا قليلاً من التقدم حتى جاء جون ستيورات مل، وآدم سميث اللذان وضعا جذور علم الاقتصاد الجديد. [٦٦]

فالتقدم الاقتصادى الذى نجم عن التقدم فى العلوم والفنون والفلسفة، ونادى علماء الاقتصاد الفرنسيين بالمساواة والأخوة، ونجحوا فى نشر مبادئهم، لأنهم حاربوا أخطاء راسخة فى عقول الناس واهتموا بمبادئهم االاقتصادية رغم معارضتهم للسلطة، فالسياسة التي توفر رفاهية شعبها رغم احنياجات جيرانها هى سياسة واهية وهذه الأفكار جعلت تقدم الفلسفة بطئًا.[٦٧]

ومع تقدم الاقتصاد فى القرن السابع عشر حيث طبق الاقتصاد العام حساب التفاضل والتكامل نفسه فى منظمة الحياة المعيشة، وظهرت البنوك، وسياسات التأمين وتطبيق تفاضل وتكامل الاحتمالية[٦٨].

٤- التقدم والفلسفة :-

ظهرت الفلسفة فى مرحلة متأخرة وهى المرحلة الرابعة مرحلة اضطهاد الفلسفة، كما أطلق عليها كوندرسيه، فقد اضهد انكساجوراس، ولم يجد سقراط حاكمًا للدفاع عنه وحماية عبقريته، ورغم اتهامه، إلا أنه أراد تطهير الفكر، وتعليم الناس كيفية التفكير السليم، والإحساس بالحرية، وعدم احتكار العلوم، ونتيجة البحث عن الحقيقة ظهرت الفلسفة، فأرادوا أن يتعمقوا فى أسرار الطبيعة الإنسانية والإلهية[٦٩].

كما حاولوا إرجاع الطبيعة إلى أصل واحد، واهتم اليونان بالتنظير، ولم يهتموا بالملاحظة وتنمية المخيله وعندما عجزوا عن إخضاع أفكارهم للبرهنه استخدموا الأقنعة الأخلاقية، وقد جلب اليونان من الشرق الأفكار العملية وترجموها إلى مبادىء نظرية[٧٠].

ظهرت فكرتان: نظرية ديمقريطس : الكون عبارة عن ذرات، ورغم اختلاف الذرات، فالكون ثابت. مذهب فيثاغورث: الكون عبارة عن أعداد ونغم وانسجام يكشف مبادئه من

خلال خواص الأعداد، فكل ظواهر الكون خاضعة لقوانين يمكن حسابها رياضيا، وقد ظهرت هاتان الفكرتان عند نيوتن وديكارت[٧١].

وفى وسط هذا المناخ ظهرت السوفسطائية وسقراط الذى تصدى لهم، فلم يحتكر العلم، وإنما حذر الناس من أن يحصروا أنفسهم فى أشياء وضحتها الطبيعة، وكان موته بمثابة الشرارة التي اندلعت للحرب بين الفلسفة والخرافة، وآية ذلك حرق مدرسة فيثاغورث، كما شهدت هذه المرحلة أفلاطون الذى بدأ عند مرمى سقراط، – كما يرى كوندرسيه – فقد استطاع أفلاطون بمحاوراته وأسلوبه ومخيلته اللامعة المليئة بالحيوية أن يخلص الفلسفة من جفافها، واستطاع أن يطبق البديهيات الأخلاقية الرقيقة التي أثارها فى ثنايا المحاورات والحكمة التي حثت على الأخلاق الحميدة[٧٢].

ويشيد كوندرسيه بأفلاطون، ويصفه بلبنة جميلة لم يطوها الزمن أو عوامل التغيير، وينتقد كوندرسيه أفلاطون بصدد أخلاقه المتعالية، وعدم الدقة فى استخدام الكلمات، وعلى الرغم من أنه كتب على باب الأكاديمية: "لا يدخل هنا إلا من كان رياضيا" إلا أنه أدخل فروضًا عقيمة فى الوقت الذى أسس فيه جماعة أخضعت لأول مرة مبادىء المعرفة الإنسانية للفحص الدقيق، وهذا التناقض سرعان مايزول عندما نتذكر أن أفلاطون لم يتحدث باسمه، وإنما باسم سقراط الذى يرجع إليه الفضل فى تقدم العلوم الطبيعية، لأنه نبه الناس إلى العقل، وانتشرت العديد من المدارس الفلسفية[٧٣]، واشتد التنافس بينها نظرًا لعدم خضوعها لسلطة رجال الدين، ولكن سرعان ما انفصلت العلوم عن الفلسفة، وأصبح مصطلح الفلسفة يدل على المبادىء العامة التي تحكم العالم، والميتافيزيقا، والجدل، والعلوم الأخلاقية، وافتتح أرسطو مدرسة منافسة لأفلاطون شملت الدراسة فيها كل العلوم، وطبق المنهج الفلسفى.[٧٤]

وكان أرسطو لديه الشجاعة والمخيلة كى يدرك أن منهجه يمكن تطبيقه على كل شىء يمكن أن يصل إليه العقل، وقد أشار كوندرسيه إلى عاملين ساعدا على نشر الفلسفة والعلم معا : وجود شعوب مختلفة فى مملكة واحدة، وانتشار اللغة اليونانية والرومانية بين المتعلمين [٧٥] ونتيجة احتكاك الغرب بالعرب تم نقل التراث اليونانى وهيمنة الفلسفة الأرسطية إلى المرحلة السابعة، فالمدرسة الأرسطية وفقا لكوندرسيه عقيمة إلا أنها جلبت الدقة والإتقان، وأثارت عقول الناس وساعدت على وضع منهج لمناقشات أقوى من المناقشات الدينية. [٧٦]

مع ثورة العقل وحركة الإصلاح فى عصر النهضة أسهمت الفلسفة بنصيب وافر في تقدم السياسة ونظريات العقد الاجتماعى[٧٧]، فظهرت روح النقد والتحليل، وهاجم العقل

الاستبداد، وظهرت الدعوة للتعليم والمعرفة، وحمل لواء العصر الحديث فريقان، إحدهما فى إنجلترا يمثل الجناح التجريبى، والآخر فى فرنسا يمثل الاتجاه العقلى، وكلاهما نادى بالتخلص من الخرافات وتنقية العقل، وساعد على تقدم الجنس البشري، اذ تحركت العقول من سباتها، وتم رفض عبودية السلطة وفقا لما يراه العقل[٧٨]، وقد تركت الفلسفة بصماتها على الرأى العام فى العصر الحديث، ونجم عن ذلك حماس معين للثورات، وظهر مبدأ الإرادة لاتخطىء، وأصبح الناس أكثر وعيًا، ثم أخذ جون لوك الخيط الذى يقود زمام الفلسفة، فحلل الأفكار وأرجعها إلى أفكار بسيطة من حيث تركيبها، وقد أثبت التحليل أن جميع الأفكار ناجمة عن عمليات تمارسها عقولنا على الأحاسيس التي نتلقاها، ويرى كوندرسيه أن الفضل يرجع إلى جون لوك فى وضع المعرفة على مائدة التأمل الفلسفى، وقد تبنى الفلاسفة نظرية لوك، وأصبح منهجه يطبق على الأخلاق والسياسة والاقتصاد، وقد استطاع التقدم فى العلوم عن طريق منهج أطلق عليه كوندرسيه الميتافيزيقا، وهو تحليل مشاعرنا وتطوير قدراتنا والتعرف على أصل أحكامنا وتحديد القوانين حتى لانقع فى الخطأ، لذلك يطبق على إنجازات العقل البشرى لأن عمليات العقل خاضعة للتحليل فى شتى ميادين المعرفة، وهذه خطوة جديدة فى الفلسفة فرضت حاجزا بين الجنس البشرى وأخطاء طفولته، حاجزا يحفظه من الإنتكاس فى أخطائه تحت تأثير تأملات جديدة تنادى باستئصال الحدس[٧٩]، وفى هذا العصر ظهر ليبنتز، فيلسوف ذو عبقرية يبحث عن نقاء الروح وحرية الإنسان وحرية الإله، ونادى بالنظرية الذرية، ووضعها على أساس أن الذكاء القوى يستطيع إختيار أفضل العوامل الممكنة، وقد تأخر التقدم نتيجة إقرار الفلاسفة فى اسكتلندا بأن تحليل ملكاتنا العقلية لم يؤد إلى مبدأ يمدنا بأساس لأفعالنا الأخلاقية [٨٠].

تأثير الفلسفة على الرأى العام :-

إن صيانة العقل نفسه من الخرافات، ومحاربة الطغيان والتعصب الذى أفسد الجنس البشرى شجع الإنسان على المطالبة بحقه، حيث استخدم العقل فى البحث عن الحقيقة، وكانت لهذه الفلسفة الجديدة أعداء من الملوك والكهنة، ورغم اضطهاد الفلسفة، إلا أنها تقدمت بسرعة ونادت بمبادىء الحرية، فظهر علماء الاقتصاد الذين نادوا بالمساواة والعدالة فى التوزيع والحرية الاقتصادية، والأخوة والإنسجام بين طبقات المجتمع[٨١]، ونتيجة لذلك أصبح التعليم لدى كل الطبقات، واستنكار الجهل، وتناولت الأقلام الفلسفية الدفاع عن الحرية الإنسانية، وقد شكلوا رغم اختلاف مشاربهم كتيبة لمحاربة الاستبداد والخطأ، وأطلق على الفلاسفة أصدقاء الجنس الأسود، وظهر التسامح الدينى، وظلت الفلسفة قائمة على أسس ثابتة متحصنة بالعقل والعلم والمقارنة بين العقل وانتشار الفلسفة، وبين أشكال الحكومة جعل من السهل التنبؤ بأن الثورة الحديثة حتمية، وتتحقق الثورة بطريقتين :

الأولى :- الفلسفة علمت الشعوب الثورة ليحققوا لأنفسهم مبادىء طبيعية معقولة، وهذا الطريق محفوف بالمخاطر.

الثانية :-عن طريق الحكومات السابقة، وفقا لمبادىء الإنسانية والرأى العام، وهذا الطريق أقل من حيث الآلام والتضحيات، إلا أن الشعب اختار الطريق الأول والانتصار السريع للعقل والحرية.[٨٢]

فقد حاول كوندرسيه اثبات التقدم بطريقة استنباطية عقلية رياضية، تقدم يسوده السلام، فهى نظرة متفائلة، وأغفل التاريخ الحى للأمم، لأنه نظر إلى الأحداث فى خط أحادى لإثبات حتمية التقدم، فتناول البشرية كوحدة واحدة، وتغافل تمامًا عن أن تعدد الشعوب هو أساس التطور والتقدم، وبالتالى لم يقترب كوندرسيه من الواقع التاريخى.

معوقات التقدم عبر المراحل المختلفة :-

١- ربط كوندرسيه بين الثورة والتقدم، ووجد أن البلدان الخالية من الثورات تقف عند مرحلة معينة، لأن الناس يشعرون بأنهم فى حاجة إلى أفكار جديدة تكون بمثابة محرك رئيس لتقدم العقل البشرى، فكلما زادت رفاهية الإنسان، انزلق إلى الملذات وإشباعها، إما عن طريق المسكرات أو الأفيون، مما يقود بلده إلى الرغبات، وهذه تقف عائقًا أمام التقدم، كما أن المقومات العسكرية سلاح ذو حدين يدفع التقدم ويؤدى إلى الانهيار[٨٤].

٢- رغبة اليونان فى إقامة النظريات وجمع الوقائع قبل الملاحظة – فى المرحلة الخامسة – كما أن الرومان قد سيطروا على دول عديدة فنشروا فيها ثقافتهم وعلومهم ولغاتهم، حتى منعوا الفلسفة اليونانية، فثقافة وآداب روما ماهى إلا نتاج لثقافة اليونان[٨٥].

٣- اشتهرت مكتبة الاسكندرية بالكتب إلا أن المتطلعين لم يهتموا بالكتاب، وإنما اهتموا بواضع الكتاب، لأنهم تنقصهم روح الشك والفحص والبحث عن الأدلة، وعدم اختراع الطباعة كان حائلاً أمام التقدم، والسبب وراء ذلك اضطهاد علماء الدين المسيحى للعلماء، لأن العلم يضعف من سلطاتهم. [٨٦]

٤- فى عصر النهضة وقف الاضطهاد والتعصب عقبة أمام التقدم، واستولت الخرافة على العقل، وقتلت عقول الناس [٨٧].

٥- عدم الدقة فى ملاحظة الظواهر ودليل ذلك أن المعلومات التي حصل عليها البحارة والرحالة الأجانب عن الشعوب المختلفة تفتقر إلى الدقة. وان تاريخ الفلسفة والعلم شكله عدد قليل من الأفراد. [٨٩]

نتائج البحث :

هذا البحث مجرد تأمل لفكر فيلسوف يحمل فى طياته رؤية مستقبلية، وربما يكون إطلالة على جهوده لمساعدة الجنس البشرى للتقدم، ورغم معاناته فى السجن إلا أنه أراد إرساء قواعد الحرية.

١- يعد زمان كوندرسيه بمثابة نقطة انعطاف تاريخية، إذ إنه رأى أن الوسيلة الوحيدة للتقدم هى أخلاق الفنان، وبسط سلطانه فى كافة المجالات، فهو صاحب نظرة تقدمية، فقد كشف كوندرسيه

تناقض المجتمع وسلبياته، ثم حاول الصعود من السلبى إلى الموجب، ومن الواقعى إلى المثالى، جدل الهابط والصاعد، مستوحيا ذلك من معطيات الواقع الراهن، وإضافة المزيد من عنده وخاصة فيما يتعلق بمطلقية العقل، وتجاوز حدود الراهن من خلال خطة منهجية يصيغها كوندرسيه لتكون الخطة الأولى من نوعها، والتى تشمل كل الأبعاد المتعارف عليها للتقدم، ليقدم لنا خطة متكاملة للصعود الشرى إلى أفق التقدم بآليات واضحه وأسلوب علمى محكم، وربما يكون ذلك هو السبب الرئيس فى أن المجتمع الذى كان يعيش فيه كوندرسيه لم يتقبل أفكاره التي كشفت الغطاء عنه كل السلبيات والانكسارات الاجتماعية، مما أدى إلى الحكم عليه بالموت بالمقصلة.

٢- الفلسفة وسيلة تمكن الإنسان من استخدام عقله، وهذا ما استفاد منه كوندرسيه، حيث أفسح المجال أمام العقل الذى يأتى بالقرار، ومراجعة ما اعتدنا عليه فى التفكير، فالعقل الإنسانى فُطر على التقدم، وهو المصدر الوحيد للمعرفة وليس التراث القديم، فوضع جميع الأشياء على محكمة العقل للكشف عن الأسباب الكامنة وراءها، ومن هنا كان رفضه للتراث المسيحى مسايرًا العقل الغربى. وآية ذلك كتابه المخطط، وتسجيله لمراحل البشرية، فتحرر الإنسان من أغلا ل الخرافات والجهل، لأنهما يقفان حائلا أمام الحريات والمساواة بين البشر، لذا فإن المعرفة ضرورية لإنارة العقل البشرى.

٣- تبدو النظرة التنويرية عند كوندرسيه فى أعظم صورها فى شكل المساواة المطلقة فى كافة المستويات نماذج للمساواة، كما يمكن اعتبار حديثه عن العلاقة بين المرأة والطبيعة والخصوبة بمثابة تمهيد لفلسفة البيئة التي تجعل المرأة عنصرًا لخصوبة الحياة الاجتماعية، وبالتالى فى النظرة إلى التقدم الاجتماعى بشكل عام.

٤- قدم كوندرسيه رؤية جديدة مبتكرة لفكرة المواطنة من خلال النظرة الخاصة فى الحقوق العامة والخاصة، فقد أضاف إليها الكثير، وتجاهل الكثير وفقا لرؤية ابداعية خاصة للتقدم الإنسانى بشروط كوندرسيه.

٥- توفر لدى كوندرسيه ابتكارية الربط بين الخطأ الفلسفى والعلمى بكل السلبيات السياسية والأخلاقية.

٦- إدخال الفرضيات العلمية مثل حساب التفاضل والتكامل فى الدراسة المتأنية للتقدم، رغم أن العلم يتسم باليقين التام والتقدم، بالنسبة المطلقة بدليل اختلاف وجه التقدم من فيلسوف لآخر واختلاف عوامل تواجده.

٧- ربط كوندرسيه ربطا منطقيا بين التقدم والأخلاق، ومستويات السعادة والشقاء، وأضفى عليها الطابع العملى الخاص، وليس التنظير الفلسفى البحت.

٨- نظر كوندرسيه بعين الحكمة إلى تفاعلية كل الأبعاد المُشّكلة للتقدم، وإلا سقط شرط هام من شروط التقدم الإنسانى، وانعكس ذلك على كفاح الإنسان المستمر والدائم لتحقيق التقدم الإنسانى متعدد الابعاد.

٩- رغم نزعته التفاؤلية حيال المستقبل إلا إنه أخفق فى زرع روح التفاؤل فى نفوس الناس لأنه أغفل الجوانب الروحية مرتكزا على التعانق بين العلم والعقل فقط، فالمخطط صوّر الانسان على أنه بدأ من أحط المراحل الوحشية، كما أن رؤيتة التنويرية لم تكن بسبب أفكاره الجديدة المبدعة، بل إنه خلق توليفة من جميع نظريات أسلافه (فولتير وروسو وكوندياك) فتصور السلام العالمي واختفاء الدين من أهم العناصر المشتركة بينهم.

١٠- على رغم من انتمائه إلى مجتمع غربى، إلا أنه نقده دون أن يخشى أحد، ولعل الدافع وراء هذا النقد هو ما عاناه من ظلم واستبداد، فقد استنكر سبل التقدم التي توصل إليها الإنسان الغربى من أجل السيطرة واحتلال الشعوب.

١١- من الصعب على أى فيلسوف تأسيس نظام شامل للأخلاق، لأن منظومة القيم متأثرة بالأيديولوجيا السائدة زمانيًا زمكانيًا.

١٢- رد كوندرسيه الفساد الأخلاقى فى عصره إلى الانغماس فى الملذات وقسوة الطبقة الحاكمة.

١٣- هل ترك كوندرسيه الماضى يحكم بعبثية دون جدوى ؟ أجاب عن سؤالنا هذا بأن الإنسان صانع الماضى والحاضر والمستقبل، لذا يجب ألا نتغافل عن الماضى، لأن

صناعة المستقبل تأتى من النقد الذاتى للماضى والحاضر، واستلهام أفضل مافيه للمستقبل، لأن المستقبل هو التغير الأمثل للتقدم.

١٤- إن التقدم يحدده تكوين الانسانية، كما تحدده خواص وطبيعة الظروف المحيطة، كما أن هذه الظروف تتناسب وفقا لما يرى كوندرسيه مع تقدم لانهاية له، ، فالعقل الإنسانى لا يستطيع أن يضع حدودًا ثابتة لتقدمه الخاص فى المعرفة والفضيلة، أو حتى مدى استمرار وطول الحياة الإنسانية، وهذا يفسر الأهمية التي يضفيها كوندرسيه على التعليم.

١٥- إن التقدم فى نظر كوندرسيه لا يقوم على الحقائق الأبدية، وإنما يقوم على العلم التقنى، فقد أراد وضع نظام يسير عليه التقدم البشرى، ويؤكد أنه لاشىء يحدث عرضا أو يأتى اعتباطيا، بل كل شىء يحدث وفقا لعلل معينة.

١٦- إن المراحل الماضية من التاريخ ماهى إلا مرحلة تحضيرية للمراحل المتأخرة، فهى وسيلة للوصول إلى الذروة المؤهلة للتقدم.

١٧- اقتحم كوندرسيه مجال الحرية، ومجال الإمكان فى سياق تاريخى تطابقت فيه النزعة الفردانية، وتماهت مع الحركة الاجتماعية التحررية.

١٨- الإنسان يسعى دائما إلى الكمال، والطبيعة لم تحدد زمانا لكمال ملكات البشرية، وهذه القابلية تمهد لتقدم مستقل عن أى قوى،

١٩- لم يكن تفاؤل كوندرسيه تفاؤلاً أعمى، فمازلنا نرى قوى التنوير فى جزء صغير من العالم، وكثرة تسيطر عليها الجهالة والتعصب.

٢٠- كوندرسيه من أشد المدافعين عن القيم الكونية لحلمه بالمساواة ومستقبل البشرية الزاهر الذى يسيطر عليه العقل ويلغى التمييز.

٢١- دافع عن وجهة النظر العلمانية.

٢٢- إذا عاش كوندرسيه فى عصرنا فأى مرحلة متقدمة تمثل عصرنا؟ لا سيما أن تقدم العصر حلم من أحلامه، شبكة المعلومات والفضائيات، والميديا الإعلامية والهواتف المحمولة، كل هذا جعل العالم أكثر ارتباطا وأكثر حرية، وأكثر وحشية، والسؤال هل التطور والتقدم من الألواح المعدنية، والكلمة المطبوعة، والتطورات الجنونية جعلت الإنسان المعاصر فى صورة حصاد دائم، وهل أسهم هذا فى الحرية، أم أننا نقع تحت أسر أسياد جدد؟

٢٣- هل الجنس البشرى يحسن نفسه بالاكتشافات فى مجال العلوم، والفنون، ووسائل الرفاهية، والازدهار العام؟ أم عن طريق التقدم فى مبادىء السلوك الأخلاقى العملى؟ أم عن طريق الكمال الحقيقى للملكات الفكرية أو الأخلاقية أو الجسدية ؟ إن التحسين ناجم عن الكمال سواء من الأدوات المستخدمة أو التوجيه، فلابد من رصد التقدم الذى أحرزته العلوم والحضارة التي تقدمت بالفعل، فالطبيعة لم تضع حدا لتحقيق آمالنا.

٢٤- هل كوندرسيه فيلسوف ماورائى غارق فى الضباب ؟ وهل الأنوار مازالت موجودة معاصرة لنا تشع بنورها علينا، رغم الغيوم الملبد فى السماء ؟وفى النهاية هل عصر التنوير مجرد تكرارات لا تخبرنا عن الطبيعة ؟ أم أنه دعوة حقيقية لرؤى تنويرية؟

وأخيرا قدم كوندرسيه لوحة رائعة لفردوس بشري تتحقق بشجاعة الإنسان، وتقدم العلم، وتحرر الفكر، والحفاظ على إنسانية الإنسان وكرامته.

الهوامش :-

(*) المعنى الإشتقاقى للتقدم progress مايسير قدما مقابل التراجع، فالتقدم يحدث شيئا فشيئا، ولايحدث فجأة فالتقدم الهادف سيره إلى الأمام فى اتجاه محدد (انظر أندريه لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثانى، تعريب خليل أحمد، إشراف أحمد عويدات بيروت، باريس ط١ ١٩٩٦ ص١٠٥٥)، وترجع جذور التقدم إلى الفلسفة اليونانية، فقد آمن اليونان أن جوهر التاريخ هو التقدم، وغايته تحقيق أكبر قدر من السعادة والرفاهية للإنسان، بحيث يقترب الإنسان شيئا فشيئا من تحقيق النموذج الأمثل للحياة الأخلاقية والاجتماعية (انظر مصطفى النشار "من التاريخ إلى فلسفة التاريخ "قراءة فى التاريخ عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ص٧٠-٧١)، فالتقدم أخلاقى حيث تتطور الأخلاق من مرحلة أقل كمالا إلى مرحلة أكثر كمالا وهو يدل على التطور المحتوى للإنسان (انظر ايغور كون: معجم علم الأخلاق، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو ١٩٨٤)، والتقدم مصطلح حديث ذو اشتقاق غربى، ويعنى بوجه عام السير إلى الأمام فى اتجاه معين دون تقييد لهذا السير، وبصفة خاصة يعنى الانتقال التدريجى من الأحسن إلى الأحسن كالتقدم العلمى والحضارى (انظر العجم الفلسفى :مادة التقدم مجمع اللغة العربية القاهرة ١٩٧٩)، وقد حدد فلاسفة التنوير العقلى التقدم فى التفسير العلمى بعدة معانٍ: معنى تطورى :- التطور حتمى فى الطبيعة، معنى فلسفى؛ إتخذ التطور طابع نظرية شاملة فى التاريخ، معنى سياسى: إتساع المد الاستعمارى، معنى حضارى: استقلال العلم وتقدمه من أجل السيطرة على الطبيعة وتسخيرها فى خدمة الانسان وسعادته (انظر: رأفت الشيخ: فلسفة التاريخ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط١، 1969، ص ١٠٣).

(**) مارى جان نيكولاس دى كاريتان ماركيز دى كوندرسيه (١٧ ستمبر ١٧٤٣ فرنسا - ١٩ مارس ١٧٩٤) فيلسوف فرنسى، صاحب دعوة للتنوير والإصلاح التربوى، أحد المحفزين للثورة الفرنسية، وأفكار التقدم، أظهر وعده الأول كعالم رياضيات ١٧٦٩، أصبح عضوا فى أكاديمية العلوم، شارك فى إعداد الموسوعة، وفى عام ١٧٨٥ قبل إندلاع الثورة الفرنسية بأربع سنوات كتب كوندرسيه: " محاولة تطبيق التحليل على احتمالية القرارات العائدة لتعدد الأصوات، "فقد إكتشف أن حق الانتخاب يتوقف على أكبر عدد من الأصوات التي يحصل عليها المرشح (انظر B. W. E. ;Condorcet Dictionary of Philosophy, second edition, University press 1975 المستقبلى للمؤسسات الديمقراطية، وقد اتجه كوندرسيه إلى تطبيق الرياضيات

الإجتماعية على سير العمل انظر جورج لاباساد :رينيه لورد :مقدمات فى علم الاجتماع، ترجمة هادى ربيع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٦ص١٢ ويعتبر كتاب صورة تاريخية لتقدم الجنس البشرى معبرًا عن أفكاره، فقد حرره من دون مراجع وملاحظات مسبقة. . . . رفع فيه الستار عن الملامح الظاهرة للحضارة الغربية التي يختفى وراءها العديدمن العيوب والنقائض المختلفة مقارنة بالحضارة الإسلامية، وقد أتاحت له الظروف أن يتناول جميع جوانب الحياة، حتى حق المرأة فى المجال السياسى، ووضع فيه صورة نقدية للغرب (انظر مقدمة هامبشير لكتاب المخطط لكوندرسبة)، فهذا الكتاب الوحيد الذى نستطيع الوصول له بسهولة (انظر مارى كلود كوندرسيه معجم المؤلفات، ترجمة عرب صاحيلا، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٧٧، ص٨٣٧).

١- عطيات أبو السعود: فلسفة التاريخ عند فيكو، دار المعارف ١٩٧٧ص ٢٠٤.

2- Agnes Heller: A philosophy of History in Fragment, oxford, UK, 1988 p137

3-George Ritzier: Modern Sociological Theory, fourth edition International Edition, New York 1996, p21

4- Gilles Canton Cancer: Condorcet International Encyclopedia of The social science London Vol 3 p213

5- Beverley Southgate: history What and Why, New York 1975 p213

6- Yelena Osipovai :Comte and his History of Classical Sociology Edited by prof I. S ken Translated by H. camp all Moscow 1989 p23.

7- H. B. A:. Condorcet, Marquis de ,The New Encyclopedia Britannica. William Benton Publisher 1973 NO 14 p1080

٨- عاطف وصفى :كوندرسيه، سلسلة نوابغ الفكر الغربى دار المعارف د. ت ص٧-٩

9- Antoine –Nicolas De Condorcet: Sketch for A Historical Picture of The Progress of The Human Mind, Translated by Jun Brace logh ,with an Introduction by Stuart Hampshire ,London ,1955 , p 26

10- ibid.

11- Kingsley Martin: Frenchliberal, Thought in Eighteen century ,a Study of Political Ideas from Bayle to Condorcet, New York 1963 p 291.

12- Condorcet: op cit p3

13- log. cit

14-: Kingsley Martin:op cit p291

15 –Ibid p 292

16 –Condorcet: op. cit p20

17- ibid p 20 –

18- زغلول النجار : قضية التخلف العلمى والتقنى فى العالم الإسلامى المعاصر، كتاب الأمة، مؤسسة أخبار اليوم، دار الكتب والمكتبات ط٢ ١٩٨٨ العدد ٨٠، ص٧٢

19- Condorcet:p16

20 lester. g –grocker:The Age of Enlightenment, London Melbourne 1969 p406

21- Kingsley Martin:op cit p291

22- ibid :p 269

23- Condorcet :opcit p53

24- Ibid p 55-56 وايضاlestercrocker : op cit P308

25- Ibid : pp102

26-H. B. A. op cit p 1080

27-Joan Lands :Condorcet>Marie-Antoine –Nicolas de Caritat, Marquis in the History of Feminism on Line Stanford Encyclopedia of Philosophy Jan 1016

28– loc. cit

29- Kingsly Martin OP cit p 279

30- Condrocet : op cit مواضع متفرقة

31- Ibid:pp 22-23

32-Bruce Mazlish : The Riddle of History The Great Speculators Form Vico to Freud ,New York 1965 P85

33- Condorcet: op cit p160

34-Bruce Mazlish : op cit p90

35-Ibid p92

36 Condorcet :opcit p25

37-Condorcet :opcit p

38- Ibid: p 35

39-Ibid :pp77-78

40- Ibid :p86

41- Ibid :p94

42- Ibid :p p 96-105

٤٣- عاطف وصفى : مرجع سابق، ص ٦٣

44- Condorcet :opcit P p96-116

45- Ibid :187

46- Kingsley Martin : op cit P 85

47- Condorcet ;opcit pp91- 116 ٧١ وأيضا عاطف وصفى : مرجع سابقً

48- ibid : p 63

49- Bruce Mazlish: op cit P 85

50- Frank Mannuel :The Prophet of paris, Harved University press 1962, p 69

51- Condorcet: op cit p 22,43
52 – Ibid ;p 39
53- Ibid :pp 33-36 وأيضا عاطف وصفى : مرجع سابق ص ٦٢
54- Ibid p 35
55- Condorcet :opcit PP115- 160
56-Ibid ;p30
٥٧- السيد محمد البدوى : مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى لكوندرسيه، تراث الإنسانية، المجلد الخامس، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر د. ت. ص٩٢٥
58- Condorcet Op cit PP 62- 64
59- Ibid :p 15
60- Ibid pp21- 22
61-Ibid p27
62- Ibid :p 29
63- Ibid p:41
46- Ibid :pp 97- 80
65- Ibid :pppa19- 23
66- Ibid pp131-132
67- Ibid p139:
68- Ibid :p162
69- Ibid :p46
70- Ibid P 45
71- Ibid :p 43
72- Ibid :p 46
73- Ibid :p47
74- Ibid :p p61-62
75- ibid p65
67- Ibid :p108
78- Ibid p 112
79 –Ibid p pp117-113
80-Ibid pp130-133
81-Ibid PP136-138
82- Ibid pp138-139
83-Frank Manuel ;opcit pp68- 69
84- condrocet : op cit Pp32-33
58- Ibid :p43
68 –Ibid pp61-75
89 Ibid pp 90- 70
90- Ibid p 171 -